معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 2021-05-01
تاريخ القبـول:2021-06-10

Printed ISSN: 2352-989X
Online ISSN: 2602-6856

المدائح النّبويّة النّثريّة "وصف وتحليل"

Prophetic praise (odes) between poetry and prose

أحمد بن بوزيد [1*] ، مرزوق أبوبكر [2]

[1] جامعة عمار ثليجي الأغواط، a.benbouzid@lagh-univ.dz

[2] جامعة عمار ثليجي الأغواط merzougboubakeur@yahoo.fr

الملخص:

الأدب المرتبط بشخص رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشخصيّته العظيمة أدب جمّ لا يزال البحث فيه قائما، وإذا تعلق الأمر بالمدائح منه، فالمتعارف عليه هو المدائح الشّعرية أما المدائح النّثرية فلا نكاد نسمع عنها إلا إشارات من بعض الباحثين في أدب المدائح النّبويّة كزكي مبارك ومحمود علي مكّي، فشحّ البحث فيها أثار محاولة إماطة اللّثام عن هذه المدائح النّثرية من قصص ورسائل وخطب ومواعظ وأوصاف...ارتبطت كلها بمدحه صلّى الله عليه وسلّم والتي تميّزت ببنية خاصة ودلالات كذلك، فمن الواجب التّعرّف إلى حقيقة هذا التّراث المدحيّ العريق والمغيّب عن المدح، وكيفية الإفادة الواعية منه تحقيقا واستثمارا مع فتح المجال لدراسته والبحث فيه.

الكلمات المفتاحية: المدائح النبوية؛ الأدب ؛ النثر ؛المديح ؛ المدح.

ABSTRACT Literature related to the person of the Messenger of God, may God bless him and grant him peace, and his great personality is a lot of literature that is still being researched, and if it is related to praise from it, then what is known is poetic praise. Makki, the scarcity of research in it raised the effects of an attempt to uncover these prose praise from stories, letters, sermons, sermons and descriptions ... all were linked to his praise, may God bless him and grant him peace, which was characterized by a special structure and connotations as well. Informed benefit from it as an investigation and investment while opening the way for its study and research

Keywords: : prophetic praise; literature ; Prose; praise; Praise.

* المؤلف المرسل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1. مقدمة:

مازال أدبنا العربي – ولا يزال – قبلة الدّارسين والباحثين في مجال الدّراسات اللّغوية، والأدبيّة، والتّاريخية والانثروبولوجيّة، إذ مثّل تراثنا العربيّ عبر كل فتراته كنزا ثقافيّا وحضاريّا قلّ نظيره، استوجب – بحقّ – عمق الالتفات إليه، وفضول التّعرّف إلى كنوزه الخبيئة التي تنتظر التّحقيق، خاصة تلك النّفائس المخطوطة المغتصبة، القابعة في دهاليز كبريات المكتبات الأوربيّة، الّتي لم تجد الرّجل القادر على استرجاعها، والبّاحث المخوّل له الاحتفاء بها، والمحافظة عليها. ويبقى من الجليل والجميل التّعرّف إلى حقيقة هذا التّراث العريق المغيّب، غير أنّ الأجلّ والأجمل منه أن نملك قدرة استرجاعه، ومسؤولية الإفادة الواعية منه تحقيقا، ودراسة، واستثمارا.

ولعل موضوع المدائح النّبويّة النّثريّة – مدار فكرة مقالنا هذا – من بين تراثٍ عزيز غزير زخر به أدب فترة ما، ينبغي أن توصف بالعصر "العلميّ الموسوعيّ" عوض عصر "الضّعف والانحطاط"، خاصّة ما ارتبط بأدب الغرب الإسلاميّ (المغرب والأندلس) الّذي زخر بكمّ هائل من الأدب المرتبط بشخص رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشخصيّته العظيمة، هي ظلّ أدب السّيرة النّبوية، وما دار في فلكها، والذي ارتبط بمدحه صلى الله عليه وسلم.

لقد شاع من أدب المدائح النّبوية ما كتب (شعرا)، منذ ميلاده ، أو ما كتب في عصر النّبوة، أو بعد وفاته، ثم ما كتب في مدح الجناب النّبوي عبر تاريخ أدبنا العربيّ الإسلاميّ الممتدّ، سواء في المشرق أو في المغرب، على شاكلة ما بات يعرف بـ (المولديات) (شوقي ضيف، ١٩٩٥، صفحة ٣٧٢) ،والتي هي (المدائح الّتي تلقى ليلة المولد النّبويّ، وتحتوي على مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ومدح الأمير الّذي ينظّم حفل المولد بأمره أو بحضوره) (فاطمة عمراني، ١٤٢٨هـ، صفحة ١٣٥) أو غير ذلك، هذه المدائح ما إن تذكر حتى تستحضر في النّـــفس والذّهن – معا – بردة كعب بن زهير، وداليّة حسان بن ثابت، وميمية البوصيري، وهمزيّته، وبديعيّات صفيّ الدّين الحِلّي، ومعارضات أحمد شوقي.. وغيرها من مأثور المديح النّبويّ الشّريف.

إنّ موضوع مقالنا، الموسوم بـ " المدائح النّبويّة النّثريّة "، قد يستدعي من حيث سيمائيّة عنوانه رصد كل ما يدخل في دائرة المدائح، كنصّ له وظيفته الإبلاغية، أو تشكيل فني له وظيفته البلاغية، فالنّص الشّعري المتعلق بالمدح أهميته ثابتة ومتدَاولة، وقد استوفى البحث فيه نسبًا لا يستهان بها، مع الإشارة إلى النّصوص النّثرية و أشكالها المختلفة من خطب ومواعظ ورسائل وقصص وأوصاف...

وعلى أساس هذه المحددات ينهض موضوعنا تحت عنوان: " المدائح النّبويّة النّثريّة " إذ يقوم على نقاط رئيسة هي وفق ما يأتي :

– إشارة خفيفة إلى المدائح النّبويّة الشّعرية في عصره صلى الله عليه وسلّم والمديح بعد وفاته، ثم نتكلم عن المولديات كمديح متعلّق بزمان معيّن.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– ثم الحديث عن المدائح النّبوية النّثرية كأشكال أخرى تعلّقت بمدحه صلّى الله عليه وسلّم فالشّعر ليس وحده له فضل مديحه بل نجد أن النّثر قد زاحم الشّعر، وله كلّ الحقّ – إنه المصطفى صلى الله عليه وسلم– ، والنّاثرون كيف لا يُحضون بفضل مدحه؟ وفي ذلك إشارات كثيرة سنوردها في حينها.

فما تعلق من المدح بالمولد فهو في الشّعر "مولديّة" ، أما في النّثر فتعرف بالموالد* وما تعلق بغير ذلك كان مدحا خالصا، كذلك الخطب فإذا اختصت بالرّسول وكانت بطبيعة الحال في مدحه فهي خطبة مدحية وإذا اقترنت بزمان ومناسبة مولده كانت خطبة مولدية، ومن النّثر المتعلّق بمدحه صلّى الله عليه وسلّم الوصف، قصص المولد، رسائل الحجاج، المواعظ والتّصلية **...

– وأخيرا الحديث عن مشاهد المولد الّتي تصوّر الاحتفال بمولده صلّى الله عليه وسلّم وما كتب في ذلك مع ذكر بعض أعلامه.

وختمنا البحث والدّراسة بخاتمة نقديّة استنتاجيّة متعلّقة بالمديح في أطواره ونشأة المولد والموالد وما فيه من ايجاب وسلب متعلق بالقول أو العمل، كالغلوّ والفحش والمنكرات.

2. . بدايات المديح:

نبدأ موضوعنا منذ إرهاصاته الأولى حيث كان مديحا قد تزاحمه أو تلازمه أغراض أخرى في القصيدة جنبا إلى جنب مع مديحه صلّى الله عليه وسلّم.

للمديح النّبوي ظهور مبكّر مع ميلاده صلّى الله عليه وسلّم ثمّ مع انطلاق الدّعوة وصولا إلى شعر الفتوحات إلى أن ارتبط المديح بالشّعر الصّوفي مع ابن الفارض والشّريف الرّضيّ وانتعش مع المتأخرين أمثال البوصيري في القرن السّابع للهجرة وكان للشّعراء المغاربة والأندلسيّين بعد ذلك في مديحه نصيب مهمّ وكبير.

وهناك اختلاف بين الباحثين ، فمنهم من يقول أنه إبداع قديم ظهر في المشرق مع الدّعوة النّبوية والفتوحات الإسلاميّة مع حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة، وهناك من يرى أنه مستحدث مع المتأخرين و(من الطّبيعي أن يتضمّن الشّعر المناصر للإسلام مديحا للرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ويعدّ هذا المديح هو البذرة الأولى لفنّ المدائح النّبويّة الّذي قدّر له بعد قرون أن يستقل بذاته ويصبح من أكثر موضوعات الشّعر حظّا من القُبول والذّيوع) (محمود علي مكي، ١٩٩١، صفحة ٧)

إن المتأمّل في سيرة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يجد مدحه حتّى عند ولادته فعمّه العبّاس بن عبد المطّلب شبّه ولادته بالنّور والإشراق الوهّاج الّذي أنار الكون سعادة وحبورًا يقول (عبد الرحمن بن رجب ، ٢٠١٢، صفحة ١٠٩):

* الموالد : يرى إخوتنا المغاربة أنها هي المدائح النّثرية المتعلّقة بمدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

** هي الصّلاة على النّبي، ولها كيفيات مختلفة والمشهور منها الصّلاة الابراهيميّة الّتي نقولها دائما في التّشهد الأخير من كل صلاة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض *** و ضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضّياء وفي النّور*** وسبل الرّشاد نخترق

فإشراق الأرض ونور الأفق وضياؤه دلالات على بركة مولده الذّي نهلت منه البشريّة في السّابق والحاضر وتنهل منه كذلك في المستقبل، فعطاؤه ونوره صلّى الله عليه وسلّم لا ينطفئ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

و المتتبّع لتاريخ المديح النّبوي يجده قد نشأ منذ ولادته صلّى الله عليه وسلّم، تقول أمّه آمنة بنت وهب عندما أخذته حليمة السّعدية وخرجت به لترضعه (بن سعد ، ١٩٦٨، صفحة ١١١):

أعيذه بالله ذي الجلال *** من شرّ ما مرّ على الجبال

حتى أراه حامل الحلال *** ويفعل العرف إلى الموالي

وغيرهم من حشوة الرّجال

فأمُّه بذلك تعوّذه وتتوسّم فيه البركة والخير لما رأت منه من تباشير، فيظهر ذلك من دلالات قولها: حتى أراه، فهي تتمنى أن تراه بعيدا من كل الشرور التي مرت على الجبال وكأنها تشير إلى فتن يوم علا الماء فوق رأس الجبال.

كما تتمنى أن تراه يكبر إلى أن يصل مصافّ الرّجال الكبار فتشهد زواجه ، وتشهد كل ما يقوم به من أعراف سليمة يختص بها خيرة الرجال، كما تعيذه من حِشوة الرّجال وهم أسافل النّاس وفضلتهم الّذين بتصرفاتهم يذهبون المروءة عن أنفسهم.

ويروى أنّ أخته من الرّضاعة * قالت أبياتا تداعبه بها صلّى الله عليه وسلّم وهو صغير (بن حجر العسقلاني، ١٤١٥هـ، صفحة ٢٠٦).

ومدحه عمّه أبو طالب بقصائد عدّة، مطلع أحدها (محمد خليل الخطيب، ١٩٥١، صفحة ٥٧) :

إن الأمين محمّدا في قومه *** عندي يفوق منازل الأولاد

لما تعلّق بالزمام ضممته *** والعيس قد قلصن بالأزواد

فارفضّ من عينيّ دمع ذارف *** مثل الجمان مفرق ببداد

فالأمانة الّتي ميّزته صلّى الله عليه وسلّم، وذِكره ووصفه بها، دلالة حبّ ومدح العمّ له، وحبّ هذه الخصلة الّتي ميزته وجعلته في منزلة الولد، وهل يوجد من هو أغلا من الولد ؟

* الشّيماء بنت الحارث هي حذافة بنت الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السّعدية وقيل جذامة، ولقبها الشّيماء، من بني سعد من قبيلة هوازن وهي أخت الرسول صلى الله عليه وسلم من الرّضاعة، وابنة حليمة السّعدية مرضعة النّبي، لما توفي رسول الله أرتدّ قومها (بنو سعد) عن الإسلام، فوقفت موقفا شجاعا، تدافع عن الإسلام بكل جهدها؛ حتى أذهب الله الفتنة عن قومها، وكانت كثيرة العبادة والتنسّك، واشتهرت بشعرها الذي ناصرت فيه الإسلام ورسوله، وظلّت تساند المسلمين وتشدّ من أزرهم حتّى أتاها اليقين.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فكانت بدايات حقيقيّة لقصائد المدح النّبويّة (يقول محمَّد بن سلاّم الجمحي: «وكان أبو طالب شاعرا جيّد الكلام، أبرع ما قال قصيدته الّتي مدح فيها النّبي صلّى الله عليه وسلّم:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه *** ربيع اليتامى عصمة للأرامل) (محمود محمد الطناحي ، ١٤٢٢ هـ، صفحة ٢٤٨)

وهي من أوّل المدائح الّتي مدح الرّسول بها (محمود محمد الطناحي ، ١٤٢٢ هـ، صفحة ٥٥٣) صلّى الله عليه وسلّم، حيث كان المديح مرتبطا ارتباطا وثيقا بالأخلاق و السّلوك وصفاء النّفس وصدق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

كما عرف حسّان بن ثابت بأنّه (أول من بدأ فنّ الشّعر في المديح النّبوي) (محمد أحمد درنيقة، صفحة ١١٤) فلا بأس أن نتأمل بعض شعره في الدّفاع عن قضيّة الإسلام، وفي نقض ما قاله شعراء قريش في هجاء الرّسول وأصحابه، فشعره يتضمّن نواة المدائح النبويّة، وهو النموذج الّذي حـاكاه أو عارضه الكثير من الشّعراء وتلك هي المدائح فيما بعد (محمود علي مكي، ١٩٩١، صفحة ١٢) ويكفيه فـخرا دعاء الرّسول له (اللّهم أيّده بروح القدس) وقال له: (اهجهم وجبريل معك) فكان حسّان يزاوج بين هجاء القوم ردّا على هجائهم ومدح النّبي صلّى الله عليه وسلّم كما يقول في هذا المقطع المجتزإ (محمد أحمد درنيقة، صفحة ١١٥):

أتهجوه ولسـت لـه بكفء *** فشرّكما لخـيركما الفداء

هجوت مـباركا برّا حـنيفا *** أمـين الله شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول الله منكم *** ويمـدحه وينصره سواء

فإنّ أبي ووالـده وعـرضي *** لـعرض محمد منكم وقاء

فكان يدافع عنه بمثل أسلحتهم وبالمنطق الّذي يفهمونه وينقادون له، فكل لفظ مما سبق له دلالات الحب والمدح والدفاع عنه صلّى الله عليه وسلّم: الاستفهام الاستنكاري أتهجوه، لست له بكفء، هجوت مباركا برا حنيفا، أمين الله، شيمته الوفاء، وفي آخر القطعة الشّعرية يفديه بوالده وعرضه .

«فالألفاظ متشبّعة بالقيم الإسلاميّة الجديدة وهي لم تخل أيضا من تمدّح بالقوّة على ما تقتضيه مخاطبة هؤلاء الأعراب بالمنطق الّذي يفهمونه وينقادون له، حيث ظهر التّوازن بين التّقاليد الجاهليّة الموروثة والثّقافة الجديدة» (محمود علي مكي، ١٩٩١، صفحة ٢٨).

وبصفة عامة فالمدائح الّتي قيلت في عصره صلّى الله عليه وسلّم ممن عاصره من الشّعراء نلاحظ أنها في الغالب قصائد قيلت في غمرة الأحداث تتألف منها سيرة الرّسول وهي بذلك تسجيل صادق دقيق لتلك الأحداث الّتي غيّرت مسيرة التّاريخ.

يجدر بنا أن نشير إلى شعراء الشّيعة لما لهم من نصيب مهمّ في مدحه صلّى الله عليه وسلّم حيث « أن شعراء الشّيعة أكثر ارتباطا بشخصيّة الرّسول ص واستلهاما لها ذلك لاعتبارهم أن الخلافة حقّ خالص لآل بيت الرّسول

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صلّى الله عليه وسلّم » (محمود علي مكي، ١٩٩١، الصفحات ٥٧، ٦٠) ومن خلالهم لنمر إلى موضوعنا الأساسي، من بينهم: «الكميت بن زيد والذي هو من أوّل شعراء الشّيعة عاش بين (٦٠ و ١٢٦هـ)، عرف بالهاشميات، وتميزت مدائحه بصدق العاطفة وبراعة الاحتجاج يقول» (محمود علي مكي، ١٩٩١، صفحة ٦١) :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب*** ولا لعبا مني وذو الشّيب يلعب

ولم يلـــهني دار ولا رســـم منزل *** ولم يتطرّبني بنضان مخـــضّب

ولكن إلى أهل الفضـــائل والنّهى *** وخير بني حوّاء والخير يطلب

إلى النّفر البيض الذين بحـــبّهم *** إلى الله فيمـــــا نابني أتقرّب

بني هاشـــــم رهـط النّبيّ فإنّني *** بهم ولهـم أرضى مرارا وأغضب

فهو يمدح النّبي وآل بيته من بني هاشم، فلا هو متغزّل بجمال العذارى ولا هو ذاكر لسابق ما مضى كالطّلل، بل همّه ذكر أهل الفضائل والنّهى، فتمضي هاشميّاته تارة بالضّرب على وتر الحجاج العقلي وتارة على العاطفة متضمّنة مدح الرّسول ورثائه ومدح آل بيته.

ومن شعراء الشّيعة أيضا: الحزين الكناني (ت١٠٠هـ)، السيد الحميري الذي عاش بين سنتي ١٠٥هـ و ١٧٣هـ دعبل الخزاعي الذي ولد سنة ١٤٨هـ، الشـريف الرضي(٣٥٩هـ) مهيار الديلمي الذي ولد سنة ٣٦٠هـ ...

واختصارا نقول أن لشعراء الشّيعة فضل إلى العودة إلى المديح النّبوي حتى وإن كان تابعا وملازما لحبّ آل بيته (محمود علي مكي، ١٩٩١، صفحة ٩٠) وكأنهم لا يمدحون النّبي إلا لأجل عليّ وشيعته، كما نجد في شعرهم التّحامل على العرب وذمّهم وهذا ما يميّز شعر البعض منهم كدعبل الخزاعي والشّريف الرّضيّ وقد أشار إلى ذلك الدّكتور محمود علي مكّي في كتابه أدبيّات المدائح النّبويّة.

« التّشيع في المشرق كان له الأثر الكبير في توجيه الاهتمام إلى المولد النّبوي، وقد ميّز شعر شعرائهم أنهم كانوا يتّخذون من وصف شمائل النّبي والإشادة بمناقبه منطلقا للحديث عن فضائل آل البيت لذلك يمكن اعتبار الشّعر الشّيعي ضربا من المدائح النّبوية أو على الأقل نرى فيه النواة المبكرة لهذه المدائح» (محمود علي مكي، ١٩٩١، صفحة ٩٩)

٣– المولديات:

كما أسلفنا الذّكر أن المولديات هي المدائح الّتي تلقى ليلة المولد النّبويّ، وتحتوي على مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالشّعر كما هو معروف، ويلحق بالشّعر النّثر كالخطب والمواعظ والتّصليّة وقصص مولده المنبثقة من سيرته، ويضمّ ذلك أيضا مـدح الأمير أو السّلطان الّذي ينظّم حفل المولد بأمره أو بحضوره .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يكاد المديح النّبوي منذ بداية القرن السّابع أن يكون من المواضيع التي لا يتخلّف عنها شاعر فمنهم المقلّ ومنهم المكثر، ومنهم من كانوا يفردون له دواوين كاملة، وأعان على ذلك ازدهار الفكر الصّوفي والقبول العظيم الّذي لقيته الطّرق الصّوفيّة .

أما بلاد الغرب الإسلاميّ – المغرب و الأندلس– والّتي بعدت بقعتها عن بـلاد الحرمين كان أهلها في اشتياق دائم لزيارة البقاع المقدسة وزيارة قبره صلّى الله عليه وسلّم، فبدا ذلك جليا في أشعارهم، فتجد الشّاعر يزاوج إظهار حبّه وتعلقه بذكر البعد والصّحبة المرافقة ومشقّة السّفر.

٤– المولد والمولديات في المغرب:

مما زاد الاهتمام بالمدائح النبوية في المغرب والاندلس بدء الاحتفال بالمولد النبوي بالمغرب، ابتداء من أوائل القرن السّابع الهجري، وقد ارتبط ذلك بشخصيّة أمير يرجع له الفضل في ذلك، تماما كما ارتبط المولد النّبوي في المشرق بشخصيّة الملك المظفّر كوكبوري صاحب إربل، والّذي هو الأمير أبو العبّاس أحمد بن محمد بن الحسن، الشّهير بابن أبي عزفة اللّخمي(ت٦٣٣) وكان أميرا على مدينة سبتة ـ حلقة الصّلة الثّقافيّة بين المغرب والأندلس ـ وكان يحكم هذه المدينة شبه مستقل، مدينا بالطّاعة شكلا لسلطان الموحدين ويرجع احتفاله بالمولد إلى كتاب بدأ بتأليفه بعنوان " الدّر المنظّم في مولد النّبي المعظّم" ثم أكمله ابنه وتلميذه أبو القاسم محمد الذي حكم سبتة أيضا حتى وفاته سنة ٦٨٨ ويستحقّ هذا الكتاب وقفة خاصّة، إذ يعدّ نقطة البداية في الاحتفال بالمولد النّبوي في جميع بلاد المغرب، ومن بين الدّواعي إلى ذلك التّنصل من احتفالات المسلمين التي فيها التّقليد للمسيحيين، واستبدال ذلك بعيد مولد النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وبالفعل كان له ذلك، وأصبح عيدا رسميّا في المغرب والأندلس في سنة ٦٩١هـ ، واتخذ في القرن الثّامن الهجري صفة خاصّة من مظاهر الفخامة ما أصبح به أعظم الأعياد الإسلاميّة، كاحتفالات السّلطان أبو حمو موسي ابن يوسف الزّياني ملك تلمسان، الّذي كان من أمراء بني عبد الواد، والذي ألّف كتابا في السّياسة عنوانه واسطة السّلوك قصد تأديب ابنه وولي عهده أبي تاشفين، ضمّنه بعض أشعاره منها قصائده المولديّة التي تدل على قدم راسخة في الشّعر يقول في إحداها (محمود علي مكي، ١٩٩١، الصفحات ١٢٦، ١٢٧):

بحرمة أحمد خـير الورى *** رجـائي وظني به لن يخيب

نبي أتى رحمة للعـباد *** فمحى ومـحّص عنا الذّنوبا

وسـتن شـريعة للمؤمنين*** وشن على الكـافرين الحروبا

بـمولده أشرق الأفق نورا *** ألبست الأرض حسنا قشيبا

فألفاظ هذه القطعة الشّعرية تبيّن حرمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وترسل نوعا من التّوسل الّذي لا يقبل الخيبة، وكيف يخيب من كان هواه قد ساير محمدا صلّى الله عليه وسلّم وهو الرحمة للعالمين .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

« وقد صوّرت مشاهد هذه الاحتفالات وفخامتها في كتاب عبد الله التّنسّي التّلمساني الموسوم بـ "نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيّان" الّتي كان يقيمها أبو حمو الزّياني وكان ما يشابهها في تونس وفي غرناطة وفي فاس، وبهذا يكون قد التقى المغرب بالمشرق على العناية بالمولد النّبوي ابتداء من القرن السّابع الهجري». (محمود علي مكي، ١٩٩١، صفحة ١٢٨).

٥ – ابن الجّنان المرسي من أعلام المدح في الغرب الإسلامي:

«وكان له في الزهد ومدح النبي صلّى الله عليه وسلّم بدائع، ونظم في المواعظ للمذكرين كثيرا». (المقرّي ، ١٩٦٨، صفحة ٤١٦) و « له خطب ومواعظ ورسائل كلها في مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم» (محمود علي مكي، ١٩٩١، صفحة ١٣٠)

« ومن بديع نظم ابن الجنان رحمه الله تعالى هذا المقتطع من تّخميس في مدح سيّد الوجود، صلى الله عليه وسلّم » (المقرّي ، ١٩٦٨، الصفحات ٤٣٢، ٤٣٣) :

الله زاد مـحـــــمدا تكريما *** وحباه فضلاً من لدنه عظيما

واختـــصّه في المرسلين كريما *** ذا رأفـــة بالمؤمنين رحيـــما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

جلّت معاني الهاشميّ المرسل *** وتجلّت الأنـــــوار منه لمجتلي

وسما به قدر الفخار المعتلي *** فاحتلّ في أفق السّماء مقيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

حاز المحامد والممادح أحمد *** وزكت مناسبه وطاب المحتد

وتأثلت علياؤه الســـؤدد *** مجداً صـــميماً حادثاً وقديما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

تاج النبـــوّة، خاتم الأنباء *** صفو الصريح، خلاصة العلياء

نجل الذبيح، سلالة العلماء *** بشرى المسيح، دعاء إبراهيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فخـر لآدم قد تقادم عصره *** من قبل أن يدريي ويجرى ذكره

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سرّ طواه الطين فهّـم نشره *** معنى السّـــجود لآدم تفهيما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

لله فضـل المصطفى المختار *** ما إن له في المـــكرمات مجاري

ولا مبار باختـــصاص الباري *** بالحقّ قدّم محـــــــده تقديما

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

فكيف لا يمدح من كرّمه الله وفضّله من فوق سبع سموات (الله زاد محمدا تكريما) وفضّله على العالمين تفضيلا فكان سيد المرسلين برأفته ورحمته، وكانت أنواره لا تخفى على ذي بصيرة فسما رفعة واحتلّ مكانا عليّا عند خالقه وعند أصحابه وغيرهم ، وكان ومازال أهلا لكل المحامد والممادح كلها تشرّفت به لا شرف بها، فجلّ ألفاظ هذا التّخميس تعبّر بغزارة وقوّة وإيحاء، بعيدا عن المباشريّة والتّصريح : (فخر لآدم) إذ أنّه من نسله (سرّ طواه الطين) إشارة إلى خلقه، (معنى السّجود) دلالة مكانته وفضله،(نجل الذبيح) (بشرى المسيح) وكلها ألفاظ تصب في عمق الخطاب الصّوفي متفجرة بالمعنى، استلهم من خلالها الموروث الدّيني ببلاغة وكثافة، ورافق كل ذلك اللّازمة (صلّوا عليه وسلّموا تسليما) زادت النّص تناغمًا وتنسيقًا صوتيًا وهندسةً موسيقيّةً أعطت النّص إيقاعًا مميّزا .

وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على الاهتمام قديما وحديثا بالمديح النّبويّ شعرا ونثرا فتسابق الشّعراء والأدباء إلى ذلك مصوّرين خلقه وخلقته وسيرته وكلّ ما تعلّق به من أحداث وقد «أشار الباحثون إلى وجود ملاحم في شعر المدح النّبويّ، واختلفوا حول ذلك» (محمود سالم محمد، ١٤١٧هـ، الصفحات ٤٩٣ ، ٥٤١).

٦- المديح من النّثر:

المدح في الشّعر متعارف عليه ولبعضه تسميّات مختلفة كالبديعيّات، المشوبات، الهاشميّات، النّبويّات، المولديّات، الرّسائل الشّعرية، الموشحات، المعارضات المسمّطات المخمّسات الاعتذاريّات ...أما النّثر المتعلّق بمدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فهو كثير وغاب عن الكثير وهو متناثر في طيّات الكتب لم تكن فيه الدّراسات المستفيضة، وهو في قوالب كثيرة و مختلفة من الأجناس كالرّسائل والوصف والخطب..... وفي الموالد كقصص المولد وخـطبه ومواعظه وفتاويه و...

كما نجد أن النّص القرآني مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلم فزكاه الله في عقله فقال: ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى﴾[النجم، ٢] وزكاه في لسانه فقال ﴿ وما ينطق عن الهوى﴾[النجم، ٣]، وزكى أخلاقه ومدحها فقال:﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾[القلم، ٤] وزكاه ومدح قوته وبطشه مع الكفار ورحمته وتسامحه مع أصحابه فقال ﴿محمد رسول الله والّذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ [الفتح، ٢٩]

ونجد للمديح من النّثر إشارات نورد منها ما يلي:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يقول الدّكتور زكي مبارك في كتابه المدائح النّبوية في الأدب العربّي: « إن مدائح عليّ عليه السّلام النّثرية لا يظهر فيها تكلّف فهو في مطلع كل خطبة يحمد الله ويثني على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأحسن الثّناء استرسالا وسياقا ولكن في نوع التّحميد والمدح للنّبي تجد معجزة نهج البلاغة » (زكي مبارك، صفحة ١١) فنثر الإمام عليّ رضي الله عنه الّذي يستشهد به زكي مبارك يدخل النّثر إلى دائرة المدائح النّبوية، ويقول القاضي عيّاض في كتابه نفح الطّيب: « لابن الجنان خطب ومواعظ ورسائل كلّها في مدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم » (المقرّي ، ١٩٦٨، صفحة ٤٣٢) ويقول إميل ناصف في كتابه أروع ما قيل في المديح: « ونظرة المادح إلى الممدوح تشترك مع النّاس جميعا في النّظر إلى الزعيم والقائد و الوجيه والغنيّ والأمير نظرة خاصّة فيها الكثير من الإجلال والإكرام؛ يعبر فيها صاحبها عن ذاته بما يتوفر لديه من ضروب القـــول والحديث و البيان شعرا ونثرا » (إميل ناصف، الصفحات ٨، ٩) وفي هذا دلالة قاطعة على مزاحمة النّثر للشّعر فيما تعلّق بمدح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم .

ولا بأس أن نذكر بعض هذه النّماذج، مما أشرنا إليه سابقا ونبدأ ذلك مع الرّسائل وهي المعروفة برسائل الحجّاج.

٦-١- رسائل الحجّاج:

من بينها رسالة من رسائل ابن الجنّان : « ومن نثره رحمه الله تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيّد الكونين صلّى الله عليه وسلّم، وهي: السّلام العميم الكريم، والرّحمة الّتي لا تبرح ولا تريم، والبركة الّتي أوّلها الصّلاة وآخرها التّسليم، على حضرة الرّسالة العّامة الدّعوة والنّبوة، المؤيدة بالعصمة والأيد والقوة، ومثابة البرّ والتّقوى فهي لقلوب الطّيبين صفاً ومروة، مقام سيد العالمين طرّا، وهاديهم عبداً وحرّاً، ومنقذهم من أشراك الهلاك وقد طالما ألفوا العيش ضنكاً والدّهر مرّاً، ومقرّ الأنوار المحمديّة، والبركات السّرمديّة، أمتع الله تعالى الإسلام والمسلمين بحراسة أضوائها، وكلاءة ظلالها العليّة وأفيائها، وأقر عين عبدها بلثم ثراها، والانخراط في سلك من يراها.

" السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا أبا القاسم، سلام من يمدّ إليك يد الغريق، ويرجو الإنقاذ ببركتك من نكد المضيق، ويتقطع أسفاً ويتنفس صعدا كلّما ازدلف إليك فريق، وعمرت نحوك طريق» (المقرّي ، ١٩٦٨، صفحة ٤٢٤) .

« ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجف ريق. كتبته يا رسول الله وقد رحل المجدون وأقمت، واستقام المستعدون وما استقمت، وبيني وبين لثم ثراك النبوي، ولمح سناك المحمدي، مفاوز لا يفوز بقطعها إلا من طهر دنس ثوبه، بماء توبه، وستر وصم عيبه، بظهر غيبه، فكلّما رمت المتاب رددت، وكلّما يممت الباب صددت، وقد أمرنا الله تعالى بالمجيء إليك، والوفادة عليك، ومن لي بذلك يا رسول الله والآثام تنئ وتبعد، والأيام لا تدني ولا تسعد، وبين جنبي أشواق لا يزال يهزني منها المقيم المقعد، ولئن كنت ممّن خلّفته عيوبه وأوبقته ذنوبه، ولم يرض للوفادة وهو مدنس، على ذلك المقام وهو المطهر المقدس، فعندي من صدق محبتك، وحبّ صحبتك، والاعتلاق بذمتك، ما يقدمني وإن كنـــت مبطئاً ويقربني وإن كنت مخطئا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك فهي أفضل المنى، وتوسل لي إلى مولى بيّن فضيلتك وتقبّل وسيلتك، في النقلة من هناك إلى هنا، واقبلني وإن كنت زائفا، وأقبل عليّ وإن أصبحت إلى الإثم متجانفا، فأنت عماد أمتك جميعا وأشتاتا، وشفيعهم أحـياء وأمواتا ومن نأت به الدار، وقعدت بعزمه الأقدار، ثم زار خطّه ولفظه، فقد عظم نصيبه من الخير وحظّه، وإن لم أكن سابقا فعسى أن أكون مصلّيا، وإن لم أعدّ مقبلا فلعلي أعد موليا، ووحقك وهو الحق الأكيد، والقسم الذي يبلغ به المقسم ما يريد، ما وخدت إليك ركاب، إلا وللقلب إثرها التهاب، وللدمع بعدها سحّ وانسكاب، ويا ليتني ممّن يزورك معها ولو على الوجنتين، ويحيّيك بين ركبها ولو على المقلتين، وما الغنى دونك إلا بؤس وإقلال ولا الدنيا وإن طالت إلا سجون وأغلال، والله تعالى يمن على كتابي بالوصـول والقبول وعليّ بلحاقي ببركتك ولو بعد طول.

ثم السّلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك يا سيد الخلق، وأقربهم من الحق، ولمولاه بإحراز قصب السّبق، ومن طهّر الله تعالى مثواه وقدّسه، وبناه على التّقوى والرّضوان وأسّسه وآتاه من كلّ فضل نبويّ أعلاه وأسناه وأنفسه، وعلى ضجيعيك السّابقين لمهاجريك وأنصارك، الفائزين بصحبتك العليّة وجوارك، وعلى أهل بيتك المطهّرين أوائل وأواخر الشّهيرين مناقب ومفاخر، وصحابتك الّذين عزروك ووقروك، وآووك ونصروك، وقدّموك على الأنفس والأموال والأهل وآثروك، وأقرئك سلاما تنال بركته من مضى من أمّتك وغبر ويخص بفضل الله تعالى وجاهك من كتب وسطر، إن شاء الله تعالى.

كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى، اللائذ بحرمك الأمنع الأوقى، المتأخّر جسماً المتقدّم نطقا، فلان، والسّلام عليك يا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تسليما كثيرا ورحمة الله تعالى وبركاته. » (المقرّي ، ١٩٦٨، صفحة ٤٢٦)

تعدّ رسائل الشّوق الدّيني إلى الأماكن المقدّسة ، وإرسالها مع زوار بيت الله الحرام من الظّواهر الأدبيّة الّتي شاعت عند الأندلسيّين والمغاربة منذ القرن الخامس الهجري لدرجة أنّها اصبحت تقليدا عند مسلمي الغرب الإسلاميّ، كما تجدر الإشارة إلى أن هناك قصاصات تمثل رسائل ترسل إلى الرّسول صلّى الله عليه عن طريق الزّوايا حين زيارتها من طرف مريديها، وهذا ما أخبرني به بعض الأساتذة الأفاضل بتواجدها في الزّوايا الجزائريّة ، ولم نقف بعد عليها.

ولقد كانت أحوال المسلمين منذ القرن السّادس الهجري تسير إلى الضّعف والتّدهور وتكالب الممالك المسيحيّة الأوروبيّة على انتزاع المدن الإسلاميّة الأندلسيّة واحدة واحدة والقيام بالمجازر الفظيعة انتقاما وحقدا، أو تخويفا وترهيبا، وربما كان لهذه الرّسائل مفعولها النّفسي عند المسلمين حين «.. كانوا يبثّون شجونهم ويفرغون همومهم في هذه الرّسائل الّتي يتوسّلون بها إلى الرّسول الكريم ويستمدون بها العون منه.. » (محمود علي مكي، ١٩٩١، صفحة ١٢٣)، فتعدّ نوعا من التوسّل والشّكوى وطلب العون.

«وقد نقل إلينا المقرّي في كتابه "أزهار الرياض" و محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي، في كتابه الذيل والتكملة بعض الرّسائل الحجازيّة » (محمد بن عبد الملك ، ٢٠١٢، صفحة ٢٤٤).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٦-٢ الوصف:

تقدّم أم معبد الخزاعيّة* لنا وصفا دقيقا لصفات النّبي ـ صلّى الله عليه وسلّم وهيئته، والمتأمل هذا النّص النّثري يجده مدح وثناء و تفضيل تعلّق به صلّى الله عليه وسلّم إذ تقول:

" رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه حسن الخلق، لم تعبه ثجلة ولم تزر به صعلة وسيم قسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف ، وفي صوته صحل ، أحور ، أكحل ، أزج أقرن ، شديد سواد الشّعر، في عنقه سطح وفي لحيته كثافة. إذا صـمت فعليه الوقار وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر أجهر النّاس ، وأجملهم من بعيد، وأحلاهم، وأحسنهم من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثّلاثة منظرا وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفّون به، إذا قال، استمعوا لقوله، وإذا أمر، تبادروا إلى أمره محفود محشود لا عابس ، ولا مفنّد." (الترميذي، محمد بن سورة، ١٩٨٨، صفحة ٢٠٠)

فأمّ معبد وصفته وصفا دقيقا مادحة له بألفاظ تفيض كثافة وبلاغة ودلالات كلها تعبر وتوحي بجمال خلقته صلّى الله عليه وسلّم فبدأت بالشّكل الظّاهري فوصفت جسمه الشّريف بالخلوّ من النّحالة والبدانة فهو وسيم قسيم بهي المنظر متناسق الأطراف، خال من العيوب كلّها كضخامة البطن أو صغر الرأس، كما فصّلت أجزاء ذلك الجمال فوصفت الوجه بالوضاءة فهو يتلألأ تلألؤ القمر ليلة تمّه، شديد النّظافة شديد الإشراق ونفت عنه العبوس، ووصفت العين بالدّعج الذي هو شدّة سواد الوسط مع شدّة بياض الأطراف مع اتّساع العين واستدارتها كحيلة دون كحل، ووصفت الأشفار بالوطف وهو الطّول والملاحة والحواجب بالأزجّ وهي التّقوس والدّقة مع طول طرفها وكلّها أوصاف تغنى بها العربيّ في أشعاره، ووصفت الرقبة بالسّطح وهو الطول المتناسق لها. والغير الملتصقة بالجسد ووصفت الصّوت بالحسن إذ يزيد بهاؤه وجماله بالحديث، فهو أثناء صمته جميل بهي وإذا تكلم ازداد جمالا وحسنا، ووصفته بالبلاغة في الحديث وقلّة الكلام والاقتصاد، وقارنته بمرافقيه فهو أنظر الثّلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا فوصفته بالمحفود المحشود وهو المخدوم من أصحابه فهم يتبادرون لخدمته ويتنافسون ويحتشدون من حوله لسماع كلامه، فلا هو عابس يتجهم وجه النّاس ولا مفنّد يقابل النّاس بما تكره.

* هي عاتكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعة بن أصرم الخزاعية، قابلها الرسول صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه أبو بكر الصديق في طريقهما للهجرة، وقد سألاها شيئا يأكلانه، ولم يكن عندها شيء. فنظر رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ إلى شاة في الخيمة فقال: "ما هذه الشّاة يا أمّ معبد؟". قالت: شاة خلّفها الجهد عن الغنم، قال: "هل بها من لبن؟" قالت: هي أجهد من ذلك. قال: "أتأذنين لي أن أحلبها؟" قالت: بأبي أنت وأمّي، إن رأيت بها حلبا فاحلبها. فدعا بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، فمسح بيده ضرعها، وسمّى اللّه تعالى، ودعا لها في شاتها. فدرت واجترّت، ودعا بإناء يربض الرّهط، فحلب فيه ثجّا حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب آخرهم، ثم أراحوا، ثم حلب ثانيا فيها بعد ذلك حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها وارتحلوا عنها. ولما عاد زوجها أبو معبد، استغرب وجود لبن في الخيمة، فهو يعلم أنه لا توجد شاة حلوب، فقال: من أين هذا اللّبن يا أمّ معبد؟ والشّاة عازب حيال ولا حلوب في البيت! قالت: لا والله إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا. قال: صفيه لي يا أمّ معبد، فكان الذي وصفت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٦-٣ التّصلية أوالصّلاة على النّبي: :

الصّلاة على النّبي صلّى الله عليه وسلّم من أنواع الذّكر الّتي وردت على لسان الشّرع الحكيم وقد أمرنا الله في كتابه العزيز حيث قال : {إن الله وملائكته يصلون على النّبي يا أيها الّذين آمنو صلّوا عليه وسلّموا تسليما} سورة الأحزاب الآية ٥٦. (عبده غالب ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، ، صفحة ٩)

أصل التّسمية التّسخين بالنّار.

والصّلاة إسم لمصدر هو التّصلية وهي الثّناء الكامل.

(وأصل التّصلية من قولهم: صلى عصاه إذا سخّنها بالصّلاء وهي النّار ليقوّمها

قال: فلا تعجل بأمرك واستدمه*** فما صلّى عصاك كمستديم

وقيل للرّحمة صلاة وصلّى عليه الله إذا رحمه لأنّه برحمته يقوّم أمر من يرحمه) (الزّمخشري ، صفحة ٣٠٩)

التّصليّة أو الصّلاة على النّبي صلى الله عليه وسلم ذكر وعبادة وفضل عظيم، وهي ثناء الله عليه صلّى الله عليه وسلّم، وتكريمه والتّنويه به، ورفع لذكره وزيادة حبّه وتقريبه، وهي (مشتملة على الحمد والمجد فكأنّ المصلّي طلب من الله تعالى أن يزيد في حمده ومجده فإن الصّلاة عليه هي نوع حمد له وتمجيد) (ابن قيم الجوزية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، صفحة ٣١٨) وهي في عمومها نصّ نثريّ فيه مدح وثناء تعلّق بالنّبي صلّى الله عليه وسلّم، يرجى من خلالها ذكر الله ودعائه تحصيلا لرضاه وعفوه وعطائه وفضله لها العديد من الصّيغ المختلفة والمتباينة، منها ما ورد نصها عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومنها ما كان اجتهادا وتأليفا، وهي من ناحية العدد لا تعدّ ولا تحصى، نتيجة كثرة التآليف فيها خاصّة إذا تعلقّ الأمر برجال الطرق الصوفيّة، و(أول من ألف في ذلك الإمام إسماعيل ابن إسحاق القاضي المتوفى سنة ٢٨٢هـ واسم كتابه فضل الصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقد طبع بتحقيق الشّيخ محمد ناصر الّدين الألباني وهو يشتمل على مائة وسبعة أحاديث كلّها مسندة) (عبد المحسن العباد البدر، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، الصفحات ٢٨-٣٠) .

الصّلاة على النّبيّ لها العديد من الفوائد والثمرات ولها مواطن كثيرة تستدعي الوجوب أحيانا وأحيانا تستدعي الاستحباب، ولذلك اهتم بها الفقهاء والمحدثون والمتصوّفة والأدباء.

(وصفة الصّلاة عليه: اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد كما صلّيت على إبراهيم وبارك على محمّد كما باركت على إبراهيم إنّك حميد مجيد، وهذه هي الصّلاة التّامّة ويكفي الذّاكر اللّهمّ صل على محمّد وعلى آل محمّد) (ابن قنفذ أحمد بن حسين ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)

ولها العديد من الصّيغ كلّها في مدح النّبي صلّى الله عليه وسلّم والثّناء عليه وعلى آل بيته ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– حدّثنا محمّد بن عليّ بن ميمون، حدّثنا عبد اللّه بن جعفر الرّقّيّ، حدّثنا عيسى بن يونس، حدّثنا عثمان بن حكيم، عن خالد بن سلمة بن عبد الحميد بن عبد الرّحمن، دعا موسى بن طلحة حين أعرس ابنه، فقال: يا أبا عيسى كيف بلغك في الصّلاة على النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم؟ فقال موسى: أنا سألت زيد بن خارجة عن الصّلاة؟ فقال: أنا سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بنفسي، فقلت: كيف الصّلاة عليك؟ فقال: ((صلّوا عليّ واجتهدوا وقولوا: اللّهمّ بارك على محمد كما باركت على إبراهيم، إنّك حميد مجيد)). (بن مخلد الشيباني (ابن النبيل) ، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م، صفحة ٢٣) .

– حدّثنا ابن وزير الواسطيّ، حدّثنا نوح بن قيس، عن سلامة الكنديّ، عن عليّ بن أبي طالب، يعلّم النّاس الصّلاة على النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، قال: اللّهمّ داحي المدحوّات، وبارئ المسموكات، وجبّار القلوب على فطرتها شقيّها وسعيدها، اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة محبّتك على محمد عبْدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما أغلق، والمعلن الحقّ والدّامغ جيشات الأباطيل كما حمل، واضطلع بأمرك لطاعتك مستوفزا في طاعتك غير ناكل في قدم، ولا واهن في عزم، داعيا لحرمتك راعيا لوحيك، حافظا لعهدك، ماضيا على نفاذ أمرك، حتّى أورى قبس القابس، به هديت القلوب بعد خطوات الفتن والإثم واضحات الأعلام، منيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدّين، وبعيثك رحمة ورسولك بالحقّ رحمة، اللّهمّ افسح له مفسحات في عدلك واجزه مضعفات الخير من فضلك، له مهنّآت غير مكدّرات من ثوابك المعلول وجزل عطائك المحلول، اللّهمّ [أعل] على بناء البنائين [بناءه] وأكرم مثوله لديك ونزله، وأتمّ له نوره، واجزه من ابتعاث له مقبول الشّهادة مرضيّ المقالة والمنطق عدل وحجّة وبرهان عظيم. (بن مخلد الشيباني (ابن النبيل) ، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م، صفحة ٢٦) .

كل النّصوص في الصّلاة على النّبي صلّى الله عليه وسلّم، المتعارف عليها نقلا والمؤلّفة فيها اجتهادا هي ثناء عليه صلّى الله عليه وسلّم، وعلى آل بيته، وهي كذلك إظهار لفضله وشرفه وتكريم له ورفع لذكره.

٧– مشاهد المولد:

وما سبق آنفا بعض أشكال النّثر المتعلّق بمدح الرّسول صلّى الله عليه وسلم ومنها أيضا مشاهد الاحتفال بمولده لما في ذلك من تعظيم له صلّى الله عليه وسلّم، فمظاهر الاحتفال بمولده دلالة على حبّه وحبّ ذكره والتّعلق به ، ففي الاحتفال بمولده تحضّر الأشعار وهي المولديات وتحضّر الخطب وقصص المولد و المواعظ وجوانب عديدة من سيرته وهي الموالد.

وردت مشاهد الاحتفال بالمولد في الكثير من الكتب منها البداية والنّهاية لابن كثير، يقول: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير صاحب البداية والنّهاية في وصفه لمشاهد المولد « وصفه الملك المظفّر أبو سعيد كوكبرى قال السّبط: حكى بعض من حضر سماط المظفر في بعض الموالد كان يمد في ذلك السّماط خمسة آلاف رأس مشويّ، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف زبديّة، وثلاثين ألف صحن حلوى، قال: وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصّوفيّة فيخلع عليهم ويطلق لهم ويعمل للصّوفيّة سماعا من الظّهر إلى الفجر ... » (بن كثير، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٦ م، صفحة ١٣٧).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهذا مشهد من الاحتفال سنة ١٢٢٧ بمصر ببيت الباشا وبيت الدّفتردار والشّيخ البكري « ونصبوا خياما في وسط البركة ونودي في يوم الخميس ثامنه بتزيين البلد وفتح الأسواق والحوانيت والسّهر باللّيل ثلاث ليال أوّلها صبح يوم الجمعة وآخرها الأحد ليلة المولد الشّريف فكان كذلك » (الجبرتي، صفحة ٥٣١)، فكان الاحتفال بالمولد بتزيين البلدة، وانعاش التّجارة والسّهر إنها أيّام ليست كسائر الأيام، فيها الذكر والدّعاء والانشاد و الفسحة ولم الشمل والتزاور والتوسيع على العيال.

ومن مظاهر احتفال شرق الجزائر بالمولد النّبوي الشّريف ما يقوله مبارك الميلي في كتابه تاريخ الجزائر في القديم والحديث كنا نستعدّ للاحتفال بعيد المولد النّبوي. وكان من أحبّ الاعياد إلى الاطفال: فيه نطلق الشّماريخ، ونفجّر المحارق ونشهد احتفالات وسهرات في النّادي تلقى فيها خطب تأسرنا وتشدّنا وإن كنّا لا نفهم الكثير مما يقال فيها (مبارك بن محمد الميلي ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م، صفحة ٢٦).

وقد تتعدّد مظاهر الاحتفال وتختلف بين محمودة ومذمومة فهناك مظاهر لا تمتّ للإسلام والمسلمين بصله لأنها تخرج عن تعاليمه نترفّع عن ذكرها والحديث عنها، لكنها تصوّر لنا الحالة السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة للمجتمع آنذاك.

خاتمة :

البحث في المدائح النّبوية كالبحث في السّيرة النّبوية فهي معين لا ينضب من الحكمة والموعظة والهدى والنّور والسّيرة ، وهي بحقّ تجسّد القيم العليا والمبادئ الرّفيعة في شخصه صلّى الله عليه وسلّم، و مهما بلغت هذه المدائح من قوتها ومن إعجاب الناس بها إلا أنها تبقى عاجزة عن إيفاء النّبي صلّى الله عليه وسلّم كامل حقّه والمتأمّل في هذه المدائح يجدها من ناحية الزّمان قد بدأت منذ ولادته بل قبل ذلك بشّر الإنجيل بنبوته ومن ناحية النّص المدحي تجدها تختلف من زمن إلى آخر بحسب البيئة والحالة الاجتماعيّة والسّياسيّة والنفسيّة للمجتمع ومن خلال ذلك نخلص إلى النّتائج التّالية:

وُظِّفت هذه المدائح في تصوير واقع المسلمين المعاش والاهتمام بقضاياهم والدّعوة إلى اصلاح أحوالهم من العصر الإسلامي إلى العصر الحديث، كما صورت خلقه وخلقه وسيرته .

أثر الأفكار الصّوفية واضح بصورة جليّة في المدائح نتيجة مشاركتهم الواسعة والفعالّة فيها، كما كان واضحا الصّراعات المختلفة حول العقيدة الإسلامية .

من عوامل انتشار هذه المدائح في الشّرق والغرب في حقبة زمنية معينة هو الضّعف والانقسام الّذي عانت منه الأمّة الإسلاميّة ، فكان التّوسل وطلب العون وكأنها نوع من الشّكوى له صلّى الله عليه وسلّم.

من عوامل انتشار هذه المدائح في الشّرق والغرب في زمن معيّن هو الاحتفال بالمولد الّذي تولـــــــدت عنه المولديات، فتنافس الشّعراء في ذلك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من عوامل انتشار الموالد التّشيع، حتى أن بعض قصص المولد التي تم التأثر بها هي في التفجع على الحسين فكان البعض تسري إليهم روح التّشيع وهم لا يعلمون.

انتشار الطرق الصّوفية كانت من العوامل المساعدة لانتشار هذه المدائح.

هذه المدائح صوّرت الحقيقة المحمّديّة بذكر معجزاته وخوارقه كما تضمّن بعضها مدح صحابته وآل بيته .

وظّفت هذه المدائح القرآن الكريم والمعاني الدّينيّة فكان نوعا من التّناص والتّعالق النّصي، فكان في بعض هذه المدائح اقتباس وتضمين لآيات القرآن واستلهام لها وللأحاديث النّبوية الشّريفة.

بعض المدائح النّبوية غرضها الأساسي التّوسل وطلب الشّفاعة .

بناء قصيدة المدح في الغالب لا يخلو من تغزّل في مقدمتها.

تتميّز الكثير من المدائح إن لم نقل كلّها بوحدة المشاعر ووحدة الموضوع.

مديح الشّيعة في غالبه تزكية لآل البيت واثبات لحقّهم في الخلافة.

مع كثرة الزخرف اللفظي لهذه المدائح تحوّلت إلى فن تعليمي سهّل بعض العلوم وأحدث التّنافس تأثرا بما ساد في العصر ومن خلال ذلك تم النّزوح إلى أشكال جديدة.

المولديات والموالد إكثار من الذّكر والصّلاة عليه قدوة وتبركا، مع ذكر زيارة قبره، أدى إلى تفجير قرائح الشّعراء والكتّاب في هذه الأجناس.

تجلى المديح في صور أخرى غير الشّعر فكان النّثر، ومنه الخطب المتعلّقة به صلى الله عليه وسلم والوصف وقصص المولد... وهي لا تزال بعيدة عن الدّراسة والبحث نتيجة فصلها عن المدائح الشعرية.

تأثر الشّعراء و الكتاب ببعضهم البعض فبردة كعب أثرت ونسج الكثير على منوالها وبردة البوصيري تأثر صاحبها ببردة كعب فذاع صيتها وبلغ عنان السّماء وبلغت ما لم يبلغه مديح قبلها ولا بعدها، و إلى الآن أثرها جليّ حتى في الشّعراء المعاصرين، وهذا ينطبق على الشّعر والنّثر .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المراجع

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع دار الرّيادة دمشق ط١، ١٤٣٦هـ ٢٠١٥.

١. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. (١٤٠٧ هـ، ١٩٨٦ م). *البداية والنهاية*، ج١٣ . دار الفكر.

٢. أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني. (١٤١٥هـ). *الإصابة في تمييز الصحابة*، ج٨ (المجلد ١). (عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض، المحرر) دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.

٣. أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري . (بلا تاريخ). *الفائق في غريب الحديث*، ج٢ (المجلد ٢). (علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المحرر)، دار المعرفة، لبنان.

٤. أبو عبد الله محمد بن منيع بن سعد . (١٩٦٨). *الطبقات الكبرى*، ج١ (المجلد ١). (إحسان عباس ، المحرر) دار صادر، بيروت.

٥. أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (ابن النبيل) . (١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م). *كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم* (المجلد ١)، دار المأمون للتراث دمشق، سوريا.

٦. أحمد بن محمد التلمساني المقري. (١٩٦٨). *نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب*، ج٧ (المجلد ١). (إحسان عباس ، المحرر) دار صادر، بيروت – لبنان.

٧. أحمد عيسى عبده غالب . (١٤١٢هـ ١٩٩٢م،). *أوضح التعليقات على دلائل الخيرات* (المجلد ١)، دار الجيل بيروت.

٨. الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن رجب . (٢٠١٢). *لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف* (المجلد ١)، دار بن الجوزي القاهرة، مصر العربية.

٩. الأنصاري المراكشي محمد بن عبد الملك . (٢٠١٢). *الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصل*، ج٣ (المجلد ١). (إحسان عباس، محمد بن شريفة، المحرر)، دار الغرب الإسلامي، تونس.

١٠. الترميذي، محمد بن سورة. (١٩٨٨). *الشّمائل المحمدية* (المجلد ٣)، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع. . بيروت.

١١. الجزائري مبارك بن محمد الميلي . (١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م). *تاريخ الجزائر في القديم والحديث*، ج١ ، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر.

١٢. إميل ناصف. (بلا تاريخ). *أروع ما قيل في المديح*، دار الجيل بيروت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

١٣. بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد عبد المحسن العباد البدر. (١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م). *فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وبيان معناها وكيفيتها وشيء مما ألف فيها* (المجلد ١). دار ابن خزيمة.

١٤. بن علي بن الخطيب، أبو العباس القسنطين ابن قنفذ أحمد بن حسين . (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م). *وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام* (المجلد ١). (المحامي سليمان العيد ، المحرر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان.

١٥. زكي مبارك. (بلا تاريخ). *المدائح النبوية في الأدب العربي*. دار المحجة البيضاء.

١٦. شوقي ضيف. (١٩٩٥). *تاريخ الأدب العربي، ج ٨* (المجلد ١)، دار المعارف، مصر.

١٧. عبد الرحمن بن الحسن الجبرتي. (بلا تاريخ). *تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٢* ، دار الجيل بيروت.

١٨. فاطمة عمراني. (١٤٢٨هـ). *المدائح النبوية في الشعر الأندلسي* (المجلد ١). مطبعة ليلى.

١٩. محمد أحمد درنيقة. (بلا تاريخ). *معجم أعلام شعراء المدح النبوي* (المجلد ١)، دار ومكتبة الهلال.

٢٠. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م). *جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام* (المجلد ٢). (شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط ، المحرر)، دار العروبة الكويت.

٢١. محمد خليل الخطيب. (١٩٥١). *غاية المطالب في شرح ديوان أبي طالب*، مطبعة الشعراوي، طنطا.

٢٢. محمود سالم محمد. (١٤١٧هـ). *المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، ج١* (المجلد ١)، دار الفكر، دمشق.

٢٣. محمود علي مكي. (١٩٩١). *أدبيات المدائح النبوية*. الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان) دار نوبان للطباعة، الجيزة مصر.

٢٤. محمود محمد الطناحي . (١٤٢٢ هـ). *مقالات الطناحي، صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب، ج١* (المجلد ١)، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com